الدرس العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله عز وجل : { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } [النساء:١٧١] .

****

فهذا الباب ((**باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**)) بابٌ من الأبواب العظيمة في هذا الكتاب كتاب التوحيد للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ، وفي هذا الباب يبين رحمه الله تعالى بالأدلة من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن سبب الشرك وسبب وجوده : الغلو في الصالحين .

ومن المعلوم أن الصالحين لهم مكانة في قلوب الناس ، ولهم منزلة عندهم ، ولهم إدراك ومعرفة بقدرهم ، فإذا مات العالِم أو الرجل الصالح كان موته فقيدةً عند الناس ويحسون بذلك ويتألمون لفقده ، وذلك لقرب القلوب ومحبتها للصالحين وإدراكهم لفضلهم . ومحبة الصالحين قربة من القرب ، مما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى محبة أهل الخير وأهل الفضل وأهل العلم وأهل العبادة ، هذه قربة يثاب عليها المحِب ، و«المرء مع من أحب» ، لكن الشيطان –أعاذنا الله عز وجل جميعاً منه– وجد أن هذه المحبة فيها مدخل له للمغالاة في الصالحين والدخول على الناس من خلال هذه المحبة للصالحين ، فيحاول أن يزيد في هذه المحبة عن حدها وأن يرفعها عن قدرها حتى تصبح غلواً في الصالحين يتحول إلى نوع من الممارسات الشركية والتعلقات الباطلة التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان . ولهذا من ينظر في التاريخ وكيف أن الشرك يدخل على الناس يجد أن هذا المدخل هو الغالب والأعم في دخول الشرك على الناس ، بل إن أول شركٍ حصل في بني آدم وفي ذرية آدم عليه الصلاة والسلام بسبب الغلو في الصالحين كما سيأتي بيان ذلك عند المصنف رحمه الله تعالى بالأدلة .

عقد هذه الترجمة رحمه الله تعالى لبيان هذا الأمر؛ «**أن سبب كفر بني آدم**» أي بوقوعهم في الشرك بالله عز وجل وعبادة غيره واتخاذ الأنداد والشركاء مع الله سبحانه ، «**وتركهم دينهم**» الذي هو الإخلاص لله عز وجل وإفراده

وحده عز وجل بالعبادة «**هو الغلو في الصالحين**» ؛ ومعنى الغلو في الصالحين : أي تجاوز الحد في الصالحين قولاً أو اعتقاداً ؛ فمن تجاوز الحد المحدود فيما يتعلق بمحبة الرجل الصالح وموالاته والمعرفة بقدره وفضله ، من تجاوز هذا الحد إلى تعظيمٍ لذلك الرجل الصالح تعظيماً لا يليق بالبشر وإنما يليق بخالقهم وربهم وسيِّدهم ومولاهم سبحانه وتعالى فإن ذلك هو الغلو الذي يكون به صاحبه قد وقع في حمأة الشرك وعبادة غير الله سبحانه وتعالى . قال : ((**بابٌ ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**)) .

أورد أولاً قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ** ﴾ [النساء:١٧١] ؛ وأهل الكتاب المراد بهم: اليهود والنصارى ، والنصارى في باب الغلو أشد من اليهود ، حتى إنَّ من غلوِّهم في الصالحين غلوَّهم في نبي الله عيسى عليه صلوات الله وسلامه حيث ادَّعوا أنه إلهاً أو أنه ابناً للإله وعبدوه من دون الله تبارك وتعالى ، وهو نبي من الأنبياء وواحدٌ من ذرية آدم عليه صلوات الله وسلامه وليس له أي حق أو نصيب من الألوهية وخصائصها ومعانيها ، فهو بشر ومخلوق ومن ذرية آدم عليهما صلوات الله وسلامه ؛ لكنهم غلو في عيسى عليه صلوات الله وسلامه فاعتقدوا أنه إلهاً أو ابناً للإله وعبدوه من دون الله تبارك وتعالى .

فالله عز وجل يقول: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أي لا تتجاوزوا في دينكم الحد الذي شرع الله لكم ونزل به وحيه المبين في الإنجيل والتوراة ، والكتب المنزلة كلها تقرر التوحيد وتدعو إليه وتحذِّر من الشرك وتبين فساده وبطلانه ، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أي الذي شرعه الله لكم وجاء به وحيه سبحانه وتعالى ؛ فإياكم والغلو في الدين فإنه سبب الهلكة ، وهؤلاء الأمم إنما هلكوا بسبب الغلو ، ولهذا سيأتي معنا في الحديث قول نبينا عليه الصلاة والسلام لهذه الأمة – أمته صلى الله عليه وسلم– ((إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)) .

فالغلو في الدين سبب للهلاك ولابد ، والسلامة من الهلاك تكون بملازمة طريق الاستقامة كما أُمر العبد بذلك دون طغيان وغلوٍ ومجاوزة للحد كما قال الله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود:١١٢] أي الزم طريق الاستقامة كما أمرك الله سبحانه وتعالى بذلك دون تجاوزٍ للحد بزيادةٍ أو مغالاةٍ أو نحو ذلك . فالغلو سببٌ للهلاك والله سبحانه وتعالى حذَّر منه الأمم السابقة ، ونبينا عليه الصلاة والسلام حذَّر منه هذه الأمة وأخبر أن سبب هلاك الأمم قبلنا هو الغلو في دين الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله :

في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} [نوح:٢٣] **قال : «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى**

الشيطان إلى قومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسمُّوها بأسمائهم ، ففعلوا ولم تُعبد ، حتى إذ هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت» .

قال ابن القيم رحمه الله : «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم» .

****

ثم أورد المصنف رحمه الله تعالى ما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح:٢٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما : ((**هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح**)) أي عُرفوا بالصلاح ، عُرفوا بالفضل والنبل والعبادة والعلم، عُرفوا في مجتمعهم بمناصحة الناس ودلالة الناس على الخير ؛ فلما مات هؤلاء الرجال الصالحون من قوم نوح وكان عددهم خمسة رجال وماتوا في وقت متقارب تألم الناس لفقدهم ألماً شديداً . وفقْد الرجل الصالح العالم الفاضل الذي شاع فضله وانتشر ذِكره الحسن الطيب مؤلم للقلوب ويتأثر الناس له تأثراً عظيماً؛ فكيف إذا اجتمع في وقت متقارب وفاة خمسة من المشاهير بالصلاح والعبادة والعلم والفضل والدعوة إلى الخير!!

فلما مات هؤلاء ((**أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم**)) انصبوا أي ضعوا في المجالس التي كانوا يعتادون الجلوس فيها ؛ يعظون الناس ويذكِّرون الناس ويعلِّمون الناس الخير ، ضعوا في تلك المجالس أنصاب أي تماثيل على صورتهم على هيئتهم سمُّوها بأسمائهم تقولون هذا ود وهذا سواع وهذا يغوث وهذا يعوق وهذا نسر ، سموها بأسمائهم لماذا ؟ ما الفكرة ؟ ما المراد من ذلك ؟ قال : من أجل أن تتذكروهم ، كلما جئتم لهذه المجالس ورأيتم تلك الصور مباشرة تتذكرون هؤلاء الأفاضل وأنهم كانوا يأمروننا بالخير ويحثوننا على الصلاح وينهوننا عن المنكر ؛ فتكون رؤية تلك الصور لكم مذكِّرةً لكم بالخير ، ناهيةً لكم عن المنكر ، مذكرةً لكم بفضائل هؤلاء الأشخاص ، لكن يقول لهم : لو أنكم ما وضعتم هذه الصور ستنسونهم وتنسون فضائلهم وتنسون نصائحهم وتنسون مواعظهم ويحصل لكم مضرة بذلك ، لكن أفضل أن تضعوا لهم صور في نفس المجالس التي كانوا يجلسون فيها من أجل الذكرى ؛ كلما مررتم بتلك المجالس تذكرتم هؤلاء الأفاضل الأخيار .

هذه الفكرة عندما ينظر لها كثير من الناس بعيداً عن العواقب التي تأتي فيما بعد والنتائج التي تحصل فيما بعد تُعدّ عند كثير من الناس فكرة حسنة فكرة جميلة ؛ كيف ننسى هؤلاء!! كيف لا نضع لهم صور وتماثيل تذكِّرنا بمآثرهم!! هذا من نسيان الجميل ومن تضييع الإحسان ؛ فلابد أن نضع هذه الصور ونضع هذه التماثيل من أجل أن نتذكر هؤلاء فنتذكر الخير الذي كانوا يدعوننا إليه . فالفكرة من حيث هي لمن قلَّ علْمه وقلَّت بصيرته بدين الله وضعُف نظره إلى العواقب ومآلات الأمور تُعد فكرة جميلة .

فاستحسن القوم الفكرة وأعجبتهم ووضعوا تلك التماثيل ، ترك هذا الجيل لم يتعرض له جاء للجيل الذي بعده أو الأجيال التي بعده ؛ ولهذا الشيطان – أعاذنا الله وإياكم وذرياتنا والمسلمين منه – يضع خطط قد لا تكون مقصوداً بها هذا الجيل الحاضر ، يضع خطط وهو يقصد أن تحصل الثمرة في الجيل الآتي أو الجيل الذي بعده ، وهذا من خطورة هذا العدو وعظَم كيده وخُبثه وطول نفَسه وصبره في الدعوة إلى الشر والكفر وعبادة غير الله سبحانه وتعالى .

فجاء للأجيال التي فيما بعد ولما نُسي العلم وضعُف في الناس جاء للأجيال التي من بعد وقال لهم : هل تعلمون لماذا أجدادكم وآباؤكم وضعوا هذه التماثيل ؟ هل تعلمون لماذا وُضعت هذه التماثيل ؟ كانوا إذا أصيبوا بالقحط لجأوا إليها فأغيثوا ، كانوا إذا احتاجوا سألوها فأُعطوا ، كانوا وكانوا ؛ فأخذ يذكر لهم أشياء ويصوِّر لهم أن آباءهم كانوا بتلك الصفة فعبدوها من دون الله تبارك وتعالى . وزاد الأمر وتمادى وتوغل القوم في عبادتها من دون الله فبعث الله سبحانه وتعالى فيهم نوح يدعوهم إلى عبادة الله وحده وإفراده بالعبادة ويذكر لهم براهين التوحيد ودلائل التوحيد وشواهد التوحيد ، ولكن القوم أصروا على كفرهم وبقوا على شركهم وقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ، ومكروا في ذلك مكراً كبارا كما أخبر الله عز وجل بذلك ، ونوح عليه الصلاة والسلام مكث في دعوة هؤلاء ألف سنة إلا خمسين عاماً يحاول أن يقتلع هذا الشرك وأن يُبعد هذه الأقوام عن الشرك بالله سبحانه وتعالى فأبوا كل الإيباء، وأصروا على الشرك كل الإصرار ، وما آمن معه إلا قليل .

فهذه القصة التي هي قصة أول شركٍ حصل في البشرية لازالت قصةً متكررة عبر التاريخ في أنواع الشرك التي تحصل؛ يدخل الشيطان على الناس من المدخل نفسه ألا وهو الغلو في الصالحين ؛ فيقول ابن عباس رضي الله عنهما : ((**هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا** – أي ماتوا – **أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا ولم تُعبد**)) لم تعبد أي : في الجيل الأول ((**حتى إذ هلك** –أي هذا الجيل الأول– **ونُسي العلم عُبدت**)) ؛ إذاً عندما أتى الشيطان للجيل الأول وطلب منهم وضع هذه الصور من أجل الذكرى خطته في أن تُعبد من دون الله تبارك وتعالى مقصوداً بها الأجيال القادمة ، أما هذا الجيل الذي عرف التوحيد وعنده العلم وجد أنه لا سبيل له عليه ، لكنه أراد أن يضع أساساً يبني عليه فيما يتعلق بالأجيال المستقبلة .

هذا يوضح لنا خطورة أمر يقع فيه كثير من الناس في البيوت ؛ بأن يضع أشياء هي من وسائل الشرك فإذا نُصح في ذلك يقول : " يا أخي نحن نفهم ونحن على معرفة بذلك وعندنا دراية بالتوحيد وعندنا معرفة بالأدلة " ، ما يدريك أن الشيطان سوَّل لك أن تضع هذه من أجل ذريتك فيما بعد وأولادك وأولاد أولادك ؟ ما يدريك أنك

برضاك بهذا الأمر قد أسست لشرك في أجيال تأتي فيما بعد ؟ فتجني على أولادك أو أولاد أولادك وذرية تأتي من بعد . فلا يستهين الإنسان بذلك ، لا يستهين بهذا الأمر ، مثل يكون مثلاً في بيتهم عالِم معروف بالفضل معروف بالنبل فيأتي بعضهم ويضع صورة كبيرة جميلة في مكان بارز في البيت ؛ لماذا وضعتَ هذه الصورة ؟ هذا والدنا وهذا معروف بعلمه ومعروف بفضله ومعروف بمكانته نريد أن نذكره ما نريد أن ننساه ، نريد أن نكون على ذكر كلما دخلنا البيت ننظر إلى هذه الصورة نقول هذا الوالد رحمة الله عليه ما ننساه . ما يدريك أنَّ الشيطان له تخطيط في أولادك أو أولاد أولادك أو أجيال بعيدة فيما بعد! وتكون أنت الذي وضعت الأساس ، وهاهي القصة أمامنا واضحة كيف أن الشيطان وضع الأساس في جيل من أجل إفساد أجيال لاحقة والجناية على أجيال لاحقة.

ابن القيم رحمه الله تعالى لخَّص أقاويل للسلف رحمهم الله تعالى في معنى الآية قال : ((**قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم**))؛ العكوف : طول الإقامة والملازمة للمكان والجلوس الطويل فيه ، وهذا يحصل من بعض الناس فيما يتعلق بقبور بعض الصالحين ؛ يذهب ويجلس جلوساً طويلاً عند قبره عاكفاً عند قبره!! ماذا تصنع؟ يقول من حبي له ومكانته في قلبي أريد أن أجلس عنده ، فيجلس الساعة والساعتين والأقل والأكثر عند قبره عاكفاً ، فهذا العكوف هو بحد ذاته عبادة ، العكوف : المكث الطويل بتذلل وخشوع وانكسار قلب ؛ ثم بعد ذلكم تأتي أمورٌ تتبع ذلك من التجاء أو دعاء أو غير ذلكم من الأمور ، والباطل يجر بعضه إلى بعض ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥٢] ، من عبادة غير الله العكوف ، العكوف عبادة ، العكوف عند التماثيل ، العكوف عند الأنصاب ، الوقوف عند المشاهد إقامةً طويلة ملازمةً للمكان مكثاً ، حتى لو كان الإنسان صامتاً لا يتكلم يطيل المكث في المكان هذا عكوفٌ ، ومر معنا قصة الشجرة التي يقال لها ذات أنواط التي يعكف عندها المشركون ويعلِّقون عليها أسلحتهم ، يعلقون الأسلحة من أجل أن تبارك من هذه الشجرة ، ويعكفون عندها أي يقيمون ويلازمون المكث عند تلك الأشجار من أجل أيضاً أن تنعكس عليهم البركة منها .

فيقول ابن القيم رحمه الله : ((**لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوَّروا تماثيلهم**)) إذاً هذان مدخلان للشرك : اتخاذ التصاوير للصالحين ، والعكوف عند قبورهم . هذا مدخل وهذا مدخل ؛ وهما فتنتان لحصول الشرك على مر العصور، وسيأتي مزيد إيضاح لذلك وتقرير له في الباب الآتي .

قال : ((**ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم**)) طال الزمان فعبدوهم ؛ أي : جاء الشيطان إلى أجيال فيما بعد لما نُسي العلم فأملى لهم عبادة هذه الأصنام فعبدوهم من دون الله .

قال رحمه الله :

وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبدٌ؛ فقولوا : عبد الله ورسوله» أخرجاه . وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو» . ولمسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «هلك المتنطعون» قالها ثلاثا .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث؛ حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم**)) ؛ والإطراء : هو المغالاة ومجاوزة الحد في المدح ، والكذب أيضاً في ذلك ؛ بأن يضيف للمدوح من الثناء والمدائح ما ليس له ، ويضيف إليه من الخصائص ما ليس له ؛ هذا يسمى إطراء . فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك قال : ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم)) ؛ أي مثل ما حصل من النصارى من مغالاة في عيسى ابن مريم فلا تفعلوا ذلك ، يحذِّر أمته صلى الله عليه وسلم من أن يصنعوا مثل صنيع أولئك .

((**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبدٌ**)) أي ليس لي من خصائص الألوهية وخصائص الربوبية أيَّ شيء ، خصائص الله لله ، وحقوق الله لله، أنا عبد لا يجوز أن يضاف لي شيء من خصائص الرب سبحانه وتعالى .

((**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبدٌ فقولوا : عبد الله ورسوله**)) ؛ اختار لنا عليه الصلاة والسلام أن نلقبه أو أن نصفه بهذين الوصفين : «عبد الله» ، و«رسوله» . وأهل العلم يقولون إن الجمع بين هذين الوصفين فيه الاعتدال والتوسط والسلامة من الغلو والجفاء، لأن في قوله «عبد الله» وصفه بالعبودية ، وهذا فيه اطِّراح الغلو ومجاوزة الحد فيه وأن يضاف له شيء من خصائص الرب أو شيء من حقوق الإله سبحانه وتعالى، فهو عبد فهذا فيه بُعدٌ عن الغلو ، الإقرار بأنه عبد فيه بُعد عن الغلو ، لأن العبد لا يُعبد ، والعبد لا يعطى شيء من خصائص الرب ولا يضاف له شيء من صفات الرب، فهو عبدٌ ، العبد لا يعبد ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] فإذاً في قوله «عبد الله» سلامة من الغلو .

وفي قوله «ورسوله» سلامة من الجفاء ، لأن الرسول يطاع ويُتبع وتُمتثل أوامره ؛ فبالإيمان بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم سلامة من الجفاء . فإذا جُمع بينهما «عبد الله ورسوله» حصلت الوسطية وحصلت أيضاً السلامة من الغلو والجفاء في الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . قال ((فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)).

لكن إذا لم يلتزم الإنسان بذلك وقال : "والله إني أحب الرسول وقلبي ممتلئ حب الرسول ، وسأنهال ثناءً على الرسول عليه الصلاة والسلام ومدحاً له ،وماذا يضيرني إذا مدحته والذي دفعني لذلك حبي له !!" نقول : حب

النبي صلى الله عليه وسلم مطلوب وقربة من أعظم القرب إلى الله سبحانه وتعالى ، لكن ليس هناك تلازم بين الحب والغلو ، لأن الحب محمود والغلو مذموم ، فلا يُخلط بين المحمود والمذموم ولا يُمزج بينهما ، بل يجِب النبي عليه الصلاة والسلام باعتدالٍ وتوسطٍ وبُعدٍ عن مجاوزة الحد ويحذر في الوقت نفسه من المغالاة في هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . وهذه المحبة لا تكون شافعاً لصاحبها أن يغلو في النبي عليه الصلاة والسلام قولاً أو اعتقاداً كيف شاء ، بل غلوه مردودٌ عليه ، حتى وإن قال الذي دفعني إلى ذلك هو المحبة ، فالمحبة الصادقة للنبي صلى الله عليه وسلم إنما هي في اتباعه والسير على منهاجه القويم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

وإذا نظرت فيمن ابتُلوا بها الذي حذَّر منه النبي عليه الصلاة والسلام ونهى عنه ترى عجباً في أحوال الناس ، تمهيداً لذلك أذكر لكم قصة حصلت في زمانه صلوات الله وسلامه عليه : امرأة أنصارية تمدح النبي عليه الصلاة والسلام وهي تحبه صلى الله عليه وسلم وقالت في مدحها له وثناءها عليه : "وفينا رسول الله يعلم ما في غدٍ" ، فغضب عليه الصلاة والسلام وقال : ((لا يعلم ما في غد إلا الله)) ، إذا كان غضب عليه الصلاة والسلام من امرأة قالت "يعلم ما في غدٍ" فكيف لو سمع رجلاً يقول في مدح النبي إنه يعلم ما كان وما سيكون وأنه أحاط بكل شيء علما !! وقد قال ذلك فئات ممن غلو في النبي عليه الصلاة والسلام . وكيف لو سمع قائلاً يقول في مدح النبي عليه الصلاة والسلام : وإن من جودك الدنيا وضرتها وإن من علومك علم اللوح والقلم

و«مِن» تأتي للتبعيض ، إذا كان غضب من امرأة قالت "يعلم في غد" ، ولما فُقِد عقد عائشة رضي الله عنها وأرضاها وكان تحت الناقة وأخذوا يبحثون عنه ما كان عليه الصلاة والسلام يعلم الغيب ، وإلا لقال لهم تجدونه تحت الناقة!! صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ما كان يعلم ، ويوم القيامة يقال له : ((إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك)) ما كان يعلم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . والقصص في ذلك في سنته صلى الله عليه وسلم كثيرة جداً ، وأمَرَه الله سبحانه وتعالى في القرآن أن يقول ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾[الأنعام:٥٠] ومع ذلك يأتي من يأتي ويغلو في مدحه وإطرائه فيصفه عليه الصلاة والسلام بأنه يعلم الغيب !! فليكن منا على بال قول نبينا عليه الصلاة والسلام ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)) .

قال : ((**وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»**)) متى قال ذلك عليه الصلاة والسلام ؟ لما التقط له ابن عباس سبع حصيات من أجل رمي جمرة العقبة وصفهن بأنهن مثل حصى الخذف ، وحصاة الخذف : هي التي توضع على الإبهام وتُدفع بالسبابة ، حصاة صغيرة وحجمها مثل ما قال أهل العلم قريبة من حبة الفول . قال ((مثل حصى الخذف)) فوضع تلك الحصيات بيده وقال : ((بمثل هذا فارموا)) ويُري الناس ((بمثل هذا فارموا ، وإياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)) ؛ السبب خاص واللفظ عام ، السبب يتعلق برمي الجمرة ، لكن انظر إلى واقع الناس في هذا السبب الخاص رمي الجمار ؛ هل كل الناس عندما يرمون جمرة العقبة يرمونها بحصاة مثل حصى الخذف ؟ انظر إليهم عند الجمرة هل يرمونها بحصاة مثل

حصى الخذف والنبي صلى الله عليه وسلم قال ((بمثل هذا فارموا)) هل يرمونها بحصاة مثل حصى الخذف ؟ انظر بماذا يرمون ؟ تجد عدداً من الناس يرمي بأحجار كبيرة ، يرمي بالحذاء الذي في قدمه ، يرمي بقطعة من الخشب ، بزجاجة بعلبة من العلب!! والنبي صلى الله عليه وسلم قال ((بمثل هذا فراموا)) ، فتجد غلو في الرمي برمي بأشياء مجاوِزة للحد وتجد أيضاً تفريط في الرمي في بعض الناس من يفرط ويترك الرمي ويتهاون فيه ، بين غلو وجفاء وتوسط واعتدال .

قال : ((بمثل هذا فارموا وإياكم والغلو)) يعني سواء في هذا الأمر المخصوص أو في كل أمرٍ من أمور الدين ((إياكم والغلو)) أي احذروه أشد الحذر ((**فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**)) والغلو كما تقدم معنا مجاوزة الحد .

((ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « هلك المتنطعون » قالها ثلاثاً)) محذرا صلوات الله وسلامه عليه . والمتنطع : هو المتشدد في غير موضع الشدة مغالاةً وتجاوزاً للحد ، فحذَّر من ذلك صلوات الله وسلامه عليه وأخبر أن التنطع في الدين سببٌ لهلاك صاحبه ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا)) .

قال رحمه الله :

فيه مسائل ؛ الأولى : أنَّ مَن فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب .

المسألة الأولى : أنَّ من فهم هذا الباب وبابين بعده –أي لهما تعلق بالموضوع نفسه– تبين له غربة الإسلام ؛ لأنه سيرى أن هذه الأسباب التي جاء ذكرها في القرآن وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم سبباً لوقوع الشرك يجد أنها تتكرر عند الناس وتوجد بينهم ، وأن المدخل نفسه يدخل على الناس ولا يزال يدخل عليهم ، فمَن فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام:١١٠] ، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء ؛ وهذا يجعل الإنسان يخاف على نفسه ، يخاف على عقيدته ، يخاف على إيمانه من الأمور التي تقلِب العقائد وتفسد الأديان ، فعليه في هذا المقام أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى أن يثبته على الحق والهدى ، وأن يأخذ بالأسباب النافعة للثبات على الحق ، وأن يحذر من الأسباب التي تفضي إلى الهلكة .

الثانية : معرفة أول شركٍ حدث في الأرض أنه كان بشبهة الصالحين .

معرفة أول شرك حدث على وجه الأرض أنه بشبهة أي بسبب شبهة محبة الصالحين وتعظيم الصالحين ، مثل ما مر معنا في قصة أولئك الخمسة الرجال الصالحين من قوم نوح .

الثالثة : أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم .

دين الأنبياء التوحيد ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، فيقول : معرفة أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء الذي هو توحيد الله؛ كيف غُير هذا التوحيد؟ عرفنا أن الشيطان دخل على الناس من خلال الغلو في الصالحين باتخاذ الصور لهم وبناء البنايات العالية على قبورهم وتشييدها حتى أوصلهم من خلال ذلك إلى عبادتها من دون الله تبارك وتعالى .

الرابعة : قبول البدع مع كون الشرائع والفطَر تردُّها .

قبول البدع مثل ما حصل من أولئك القوم لما قال لهم : ضعوا صور للذكرى تذكركم بهؤلاء ، وتذكركم بعبادة الله ، تذكركم بالخوف من الله ، تذكركم بهؤلاء الأشخاص فتدعون الله ؛ هذا الصنيع ماذا يسمى ؟ وضْع صورة للصالح من أجل أن يذكِّر بالله ويذكر بعبادة الله ؟ بدعة في دين الله ، ليس في شرع الله ما يدل على جواز وضع صورة للصالح من أجل أن يذكِّر الناس بالله تبارك وتعالى ، فهذا العمل بدعة .

فيقول الشيخ : «قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردُّها» ؛ الشرائع جاءت برد البدع ونهي الناس من أن يعبدوا الله بشيء لم ينزل به دليل ولم ينزل به إذن من الله ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١] ، والفطَر كذلك السليمة ترد ذلك وتأباه .

الخامسة : أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل ؛ فالأول : محبة الصالحين . والثاني : فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيرا ، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره .

الخامسة : أن سبب ذلك مزج الحق بالباطل؛ وهذا مكمن الخطورة ، وكثير من الناس يدخل عليه الباطل لكونه مُزج بحق ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ [البقرة:٤٢] ، فيُلبَس الحق بالباطل من أجل أن ينفُق الباطل ويكون له قبول ، لأنه لو جيء بالباطل خالصاً ليس معه شيء من الحق لردَّه الناس ولم يقبلوه ، لكن إذا مُزج معه شيء من الحق قبِله الناس الجهال لما فيه من حق ، مثل ما يعبَّر "يدس السُّم في الدسم أو في العسل " ، فهذا المزج هو الذي يورِّط الناس ويوقعهم في الباطل .

يقول الشيخ : «**فأما الأول الذي هو الحق : محبة الصالحين**» انتبه لكلامه يقول أما الأول الذي هو الحق محبة الصالحين . الشيخ رحمه الله تعالى يحب الصالحين ويدعوا إلى محبة الصالحين ويقرر أن محبة الصالحين حق ، خلافًا للخصوم الذين يلمزون أهل الحق بأنهم لا يحبون الصالحين ، لماذا يقولون عنهم لا يحبون الصالحين ؟ لأنهم ينهون عن عبادة الصالحين وعن الغلو في الصالحين ، والذي يغلو في الصالحين قد امتزج عنده الأمر واعتبر أن الغلو فيهم جزء من محبتهم ، فمن نهاه عن الغلو فيهم اعتبره ناهياً عن محبتهم ؛ وهذا سبب البلاء في هذه المسألة .

يقول «**وأما الثاني : فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره**» هنا في هذه القصة ما الذي فعله هؤلاء وأرادوا به خيراً ؟ وضعوا تلك الصور بوحيٍ من الشيطان من أجل أمر هو خير ؛ أن يذكروا هؤلاء وأن يذكروا نصحهم وأن يذكروا دعوتهم وأن يذكروا وعظهم وتعليمهم ، فيقول «فِعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره» ؛ جاء الشيطان للأجيال التي بعد وقال : إنما وُضعت تلك الصور من أجل الاستشفاع بها ودعاءها والاستسقاء بها إلى غير ذلك .

السادسة : تفسير الآية التي في سورة نوح .

أي قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ إلى آخر الآية ، وقد مر معنا شيء من الكلام على معناها .

السابعة : جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد .

لكثرة الأمور التي تجرف الإنسان ؛ الدنيا وفتنها ، والشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، وغير ذلك من أنواع الفتن ، ولهذا قيل : " ليس العجب ممن هلك كيف هلك ، ولكن العجب ممن نجا كيف نجا " ، فجبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد ؛ إلا من حفظه الله سبحانه وتعالى وثبته وزاده هدى .

الثامنة : أن فيها شاهداً لما نُقل عن السلف أن البدع سبب الكفر . "

السلف يُنقل عنهم كثيرا أن البدعة سبب للكفر ويقولون أيضا البدعة بريد الكفر لأنها توصل إليه وتفضي إليه ، فانظر شاهد ذلك في القصة المتقدمة ؛ بدعة التصاوير من أجل تذكير الناس بالصالحين وفضائلهم ودعوتهم إلى الله كيف أن هذه البدعة جرَّت فيما بعد إلى الكفر بعبادة هذه الصور والتماثيل من دون الله سبحانه وتعالى .

التاسعة : معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسُن قصد الفاعل .

لاحظ أن الشيطان لم يقف مع حُسن قصد الجيل الأول ، لأنه يريد الجيل القادم ، مع أن حسن القصد لا يريده الشيطان لكنه أغضى عنه من أجل الأجيال القادمة ، فالشيطان يعرف بما تؤول إليه البدعة ، وأن البدعة تجر الناس إلى الكفر والشرك بالله سبحانه وتعالى .

العاشرة : معرفة القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه .

«معرفة القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو» مرت معنا في الآية ﴿ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ ، وفي الحديث « **إياكم والغلو** » ، «ومعرفة ما يؤول إليه» أي : ما يؤول إليه الغلو في الدين من إهلاكٍ لصاحبه بإيقاعه في الكفر والشرك بالله سبحانه وتعالى .

الحادية عشرة : مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح .

كما مر معنا نقل ابن القيم عن غير واحد من السلف قال : ((لما ماتوا عكفوا على قبورهم)) ، يقول مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح ، والعكوف: هو المكث الطويل وملازمة البقاء في المكان مدة من الوقت . قال : من أجل عمل صالح ؛ فانظر كيف يتدرج الشيطان بالناس لإيقاعهم في التعلق بالقبور دعاءً ومناجاة يبدأ أول ما يبدأ بالعكوف عند القبور لأجل عمل صالح ثم ينتقل من ذلك إلى ما وراءه من عبادة واستنجاد بالمقبورين وسؤال لهم من دون الله تبارك وتعالى .

الثانية عشرة : معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها .

معرفة النهي عن التماثيل ؛ الشريعة جاءت بالنهي عن اتخاذ التماثيل وهي الصور للصالحين والأنصاب التي على أشكالهم وهيئاتهم من أجل تذكُّرهم ، فالشريعة جاءت بالنهي عن ذلك والحكمة في إزالتها ، ما حكمة الشريعة في إزالتها ؟ لئلا يفضي ذلك بالناس ولو بالأجيال القادمة إلى عبادتها من دون الله سبحانه وتعالى .

الثالثة عشرة : معرفة عظم شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها .

القصة أي قصة قوم نوح وكيف أنهم عبدوا غير الله سبحانه وتعالى بسبب الغلو في الصالحين؛ باتخاذ الصور لهم ، والعكوف عند قبورهم .

الرابعة عشرة وهي أعجب وأعجب : قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام ، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات ، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه هو الكفر المبيح للدم والمال .

وهذا أمر عجيب للغاية كما ذكر رحمه الله تعالى : أنه يوجد في الناس من يقرأ هذه الآية في سورة نوح ويحفظها عن ظهر قلب وقرأ شيئاً من كتب التفسير في بيان معانيها ووقف على أحاديث في هذا المعنى ؛ النهي عن الغلو ، النهي عن الإطراء ، النهي عن التنطع ، لكنه في واقعه العملي يعمل بخلاف ما تدل عليه هذه الآيات!! في واقعه العملي يقع في قضية العكوف عند قبور الصالحين ، يقع فيما نُهي عنه من اتخاذ الصور مثلاً لهم ، يقع في شيء من هذه الأسباب التي تفضي بصاحبها إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى . فيقول الشيخ : «وهي أعجب وأعجب؛ قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام ، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات» من حيث أن واقعهم العملي يمارسون الممارسة نفسها التي أفضت بأولئك إلى الوقوع في عبادة الصالحين من دون الله . وأيضا في الوقت نفسه اعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال ، ولهذا من ينهاهم عن ذلك يسخطون عليه ويرون أنه قد نهاهم عن شيء من الدين الذي شرعه الله أو الدين الذي أمر الله سبحانه وتعالى به .

الخامسة عشرة : التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة .

لأنه قال الشيطان لأولئك –يعني الأجيال القادمة التي جاءت بعد– قال : إن آباءكم وأجدادكم كانوا إذا سألوا بها أعطوا ، وأنهم كانوا يستشفعون بها ويستمطرون بها ويستنزلون بها الخير ؛ ففيه التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة .

السادسة عشرة : ظنهم أن العلماء الذين صوَّروا الصور أرادوا ذلك .

أي أرادوا أن تُعبد وأن يستشفع بها وأن يستغاث بها ؛ ظنوا ذلك ، مع أن العلماء الذين وضعوا الصور لأيِّ شيء وضعوها ؟ وضعوها من أجل تذكر هؤلاء الصالحين وتذكر فضائلهم ، ما وضعوها إلا لأجل ذلك ، فيقول : ظنهم أي الأجيال التي جاءت فيما بعد أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك .

السابعة عشرة : البيان العظيم في قوله : «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم» ؛ فصلوات الله وسلامه على من بلّغ البلاغ المبين .

نعم بيَّن عليه الصلاة والسلام بياناً عظيماً ونصح أمته عليه الصلاة والسلام نصحاً بالغاً ، ما ترك خيرا إلا دل الأمة عليه ولا شراً إلا حذرها منه ، ولما كان الإطراء باب شر على الأمة نهى عنه وقال «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» .

الثامنة عشرة : نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين .

في الحديث الذي مر معنا عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : ((هلك المتنطعون)) وكرر ذلك ثلاثاً ، والتنطع: هو التشدد والتعمق في غير موضع الشدة .

التاسعة عشرة : التصريح بأنها لم تُعبد حتى نُسي العلم ، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقْده .

قال رحمه الله تعالى : «التصريح بأنها لم تُعبد حتى نُسي العلم »كما جاء في أثر ابن عباس رضي الله عنهما قال ((حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت)) . يقول رحمه الله : في ذلك من الفائدة معرفة قدر وجود العلم ، وأن وجود العلم يقي أهله بإذن الله تبارك وتعالى الزلل والعثرة . ومضرة فقْده ؛ لأن الناس إذا فقدوا العلم دخل عليهم الضلال ووقعوا في الانحراف والباطل .

العشرون : أن سبب فقْد العلم موت العلماء .

لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ)) ؛ ففقْد العلم بفقْد أهله وحملته .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك
اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .